مُقَدِّمَة

الحَمْدُ لله كَمَا يَنْبَغي أنْ يُحمَدَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلى نَبِيِّهِ أبي القَاسِمِ مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ الأوحَدِ.

وَبَعْدُ.

لَقِيَتْ مَوْضُوعَةُ فِقْهِ اللُّغَةِ عِنْدَ البَاحِثِيْنَ وَالدَّارِسِيْنَ العَرَبِ اهْتِمَاماً وَاسِعَاً فِي سَنَوَاتٍ تَلَتْ ظُهُوْرَ مُصْطَلَحِ فِقْهِ اللغةِ (*philology*) فِي الدَّرسِ اللغويِّ الحديثِ لاسيَّما مع بداياتِ القرنِ العشرينِ، كونَها أصبحتْ من المقرَّراتِ العلميةِ الأكاديميةِ التخصُّصيّةِ فِي الجامعاتِ العَرَبِيَّةِ، ومن هنا شرعَ الباحثونَ العربُ بتحديدِ ماهيّةِ هذا المصطلحِ والنظرِ فِي موضوعاتِه اللغويةِ لاسيَّما بعدَ النتائجِ الإيجابيةِ التي حققتْها الدراساتُ اللغويةُ الحديثةُ على صعيدِ البحثِ اللسانيِّ النظريِّ والتطبيقيِّ معتمدينَ ما ترشَّحَ عن الدرسِ اللغويِّ القديمِ من مصنَّفاتٍ لغويةٍ تَشي بماهيّةِ هذا المصطلحِ وموضوعاتِه اللغويةِ.

وقد بحثَ فِي هذا الموضوعِ، وكتبَ فيه عددٌ من اللغويينَ و الأكاديميينَ، وأُثيرتْ حولَه العديدُ من الإشكالياتِ النظريةِ والتطبيقيةِ، لا سيَّما دلالةُ المصطلحِ وعلاقتُه بعلمِ اللغةِ، وعلمِ الفنولوجيا، وموضوعاتٍ أُخَر، إذْ تمثَّلَ ذلكَ فِي مباحثِ ناقدي

التراثِ الذينَ زعمُوا أنَّ القدماءَ ومن صنَّفَ تحتَ هذا الموضوعِ لم يقصدُوا قصداً إلَى هذا المصطلحِ بماهيّتِه العلميةِ وجعلُوا ذلكَ عيباً ونقصاً تجعلُ إصلاحَه وإعادةَ النظرِ فيهِ ضرورةً ملحةً، ومهمةً أساسيةً لمعرفتِه ومعرفةِ خصائصِ اللغةِ العَرَبِيَّةِ.

ومن هذا المنطَلَقِ سعيْنا إلَى تحديدِ موضوعاتِ فقهِ اللغةِ العَرَبِيَّةِ وعرضِها مادةً لغويةً أكاديميةً مطابقةً لمفرداتِ مناهجِ أقسامِ اللغةِ العَرَبِيَّةِ في الجامعاتِ العراقيةِ وحسبَ مقترحاتِ اللجنةِ العلميةِ المعنيّةِ بتحديثِ المناهجِ العلميةِ لذا جاءَ عنوانُ كتابِنا هذا على النحوِ الآتي: «فقهِ اللغاتِ العروبيةِ وخصائصِ العَرَبِيَّةِ» لِأنَّ البحثَ فِي الخصائصِ اللغويةِ لابدَّ لهُ من الركونِ إلَى أصولِها التي ترشحتْ عنها، ومعرفةُ هذه الأصولِ تقتضي البحثَ فِي الخصائصِ اللغويةِ للغاتِ العروبيةِ والمقاربةِ بينها وبين ما هو كائنٌ فِي لغةِ العربِ.

هذا الكتابُ استقراءٌ لجهدِ مَن صنَّفَ من القُدَمَاءِ وَالمحدثينَ فِي موضوعةِ فقهِ اللغةِ أوْ ما كانَ يُبْحَثُ فِي خَصَائِصِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة وَقَضَايَاهَا، وَمَا فَضَّلْنَا فِيْهِ إلَّا شعب موضوعاتِه المُتَفَرِّقَةِ وَتَبْوِيبِهَا وَشَرحِ ما كانَ غلفا فِي موضعِه منها، والموائمةِ بينَ موضوعاتِه بمنهجٍ علميٍّ يَتَّسِقُ وَالمَوْضُوعَاتِ العِلْمِيَّةَ المُقَرَّرَةَ لِطَلَبَةِ المَرْحَلَةِ الرَّابِعَةِ، وَمَا يَحْتَاجُهُ البَاحِثُ والدَّارِسُ فِي قَضَايَا اللُّغَة العَرَبِيَّة وَخَصَائِصِهَا.

واللهُ مِنْ وَرَاءِ القَصْدِ

أ. م. د. خالد نعيم الشنّاوي
كليةُ الآدابِ جامعةُ البصرةِ في ١٧ / ٤ / ٢٠١٣

الفصل الأول

قراءةٌ في مصطلحِ فقهِ اللغةِ

يلحظُ القارئُ للتراثِ العربيِّ اضطراباً في استعمالِ المصطلحاتِ اللغويةِ التي تمثلتْ بموضوعاتِها المختلفةِ، حتىٰ أوجدَ بعضُ الدَّارِسينَ علةً لذلكَ، أولُها عدمُ التوافقِ علىٰ تلكَ المصطلحاتِ من قِبَلِ اللغويينَ، وثانيها اختلافُ المذهبِ والاتجاهِ في التحليلِ اللغويِّ، والغريبُ في الأمرِ أنّنا نجدُ الذينَ عابُوا علىٰ القدماءِ ذلكَ لا ينفكّونَ من استعمالِ تلكَ المصطلحاتِ حتىٰ توجّهُوا بها إلَىٰ حقلِ الدراساتِ الغربيةِ يقارنونَ بينَها وبينَ ما هوَ علمٌ لسانيٌّ في الدراساتِ الغربيةِ علَّهُ يماثلُه في شيءٍ حتىٰ تكونَ هذهِ التسميةُ أوٌ تلكَ مصداقاً لهذا الإطلاقِ، ومن بينِ تلكَ المصطلحاتِ مصطلحُ فقهِ اللغةِ، إذْ حَظِيَ هذا المفهومُ بالعديدِ من الدراساتِ والمؤلفاتِ التي عنيتْ بهِ كمصطلحٍ ومنهجٍ ومادةٍ، دون أنْ يكونَ ثمةَ اتفاقٌ علىٰ شيءٍ ممّا تقدمَ من دراساتٍ ما خلا أمثلة لا تقطعُ الطريقَ علىٰ إعادةِ النظرِ وإبداءِ الرأيِ وضبطِ المسائلِ[1]، لذا أوجدَ بعضُ الباحثينَ أنَّ مصطلحَ فقهِ اللغةِ أكثرُ الاصطلاحاتِ إشكالاً إذ تتدخله مداليلُ مختلفةٌ، وتعنٌّ في توظيفِه مقاصدُ متضاربةٌ[2] أي ثمةَ أزمةٌ

---

١. يُنْظَرُ: مدخل إلَىٰ فقه اللغة، د. احمد قدوره: ١٣

٢. يُنْظَرُ: قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي: ٥٧، ومقدمة لدراسة فقه اللغة د .محمد أحمد أبو الفرج : ١٢-١٤، ومحاضرات في فقه اللغة، د. عصام نور الدين : ١١، ٢٥-٢٧.

مبعثُها اختلافاتٌ مصطلحيةٌ ومنهجيةٌ ومعرفيةٌ، ومبعثُ هذا الأمرِ هو محاولةُ بعضِ الدَّارِسين نبذَ المعارفِ القديمةِ وهجرَ نظرياتِها، والسعيَ إِلَى تبنّي النظرياتِ الحديثةِ السائدةِ على ما فيها من تباينٍ واختلافٍ وعدمِ التدقيقِ فِي استعمالِ المصطلحاتِ. لذا تأتي هذه الدراسةُ للمراجعةِ والفحصِ العلميِّ، وإزالةِ ما بقيَ من غموضٍ وإشكالٍ فِي طبيعةِ وماهيّةِ هذا المصطلحِ.

مفهومُ فقهِ اللغةِ باعتباراتٍ معجميةٍ

لاشكَّ أنَّ لفظةَ فقهٍ تفصحُ لواردِ اللغةِ عن طريقِ المعجمِ العربيِّ عن المعاني الآتيةِ:

العلمُ بالشيءِ، والفهمُ له، والفطنةُ فيه. ويقالُ: فَقِهَ الرجلُ فقاهةً إذا صارَ فقيهاً، وفِقه، أي فهمَ فقه[1]. وعن ابنِ فارسٍ ت«٣٩٥هـ» تقولُ: فقهتُ الحديثَ أفقهُهُ، وكلُّ علمٍ بشيءٍ فهو فقهٌ[2]، والفِقهُ بالكسرِ العلمُ بالشيءِ والفهمُ له والفطنةُ، وفَقُهَ كَكَرُمَ فهو فقيهٌ، وفاقَهَهُ باحثَهُ فِي العلمِ، ففقَهَهُ كنصَره، غلبَ عليهِ[3].

وقد نقلَ الجاحظُ لفظةَ «فقهٍ» التي وردتْ فِي ثلاثةِ نصوصٍ من كتابِه البيانُ والتبيينُ بدلالةٍ مغايرةٍ عمّا أوردْناه من معنىً فِي المعجمِ العربيِّ، وهذا ما تمثَّلَ فِي نصِّه الذي نقلَه عن كتابِ عمرَ بنِ الخطّابِ «ﷺ» إِلَى أبي موسىٰ الأشعريِّ قالَ: «وقد بلغَ أميرَ المؤمنينَ أنّ ضبّةَ تدعو: يالَ ضبّة! وإنّي والله ما أعلمُ أنَّ ضبّةَ ساقَ اللهُ بها خيراً قطُّ، ولا منعَ بها سوءاً قطُّ، فإذا جاءكَ كتابي هذاَ فنهكهم عقوبةً حتىٰ يفرّقوا أنْ لم

١. يُنْظَرُ: لسان العرب لابن منظور: مادة (فقه)١٣: ٥٢٢، والقاموس المحيط: مادة(فقه).
٢. يُنْظَرُ: مجمل اللغة. مادة (فقه): ٣: ٧٠٣
٣. يُنْظَرُ: لسان العرب: مادة (فقه).

يفقهوا»[1] أما النَّصُّ الثَّاني فقد تمثّل بوصيةِ عبدِ الملكِ بنِ صالحٍ ت «١٨٧هـ» لابنٍ له، قالَ: «عوِّدْ نفسَك السماحَ، وتخيّرْ لها من كلِّ خلقٍ أحسنَه، فإنَّ الخيرَ عادةٌ، والشرَّ لجاجةٌ، والصدودَ آيةُ المقتِ، والتعللَ آيةُ البخلِ، ومن الفقهِ كتمانُ السرِّ»[2]، والقولُ الثالثُ فِي غيرِ موضعِها من الدلالةِ قولُ الجاحظِ فِي إياسٍ «إنّه كانَ من مفاخرِ مضرَ، ومن متقدِّمي القضاةِ، وكانَ فقيهَ البدنِ، دقيقَ المسلكِ فِي الفطنِ»[3] ولعلَّ مرونةَ اللغةِ العَرَبِيَّةِ هي التي سمحتْ بهذهِ الاستعمالاتِ اللغويةِ التي خرجتْ عن المعنىٰ الوضعيِّ للكلمةِ. ففي النَّصِّ الأوّلِ كانَ المعنىٰ: إنْ لم ينتهوا، وفي الثاني: ومن الحكمةِ. وفي الثالثِ: قصدَ: فراستَه وتأديتَه إِلَىٰ الفن بعينيه ويدِه.

ومن بابِ التخصيصِ يرىٰ بعضُ العلماءِ أنَّ مفهومَ الفقهِ أخصُّ من العلمِ. قالَ الراغبُ الأصفهانيُّ «رحمَه اللهُ»: «الفقهُ هو التوصلُ إِلَىٰ علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ»[4]. لذلكَ يقالُ للفقيهِ عالمٌ وفقيهٌ ولا يقالُ للعالمِ فقيهٌ. وقد وردتْ لفظةُ «فقهٍ» فِي القرآنِ الكريمِ عشرينَ مرةً تحملُ المعانيَ التي ذُكرتْ، فمنْ ذلكَ:

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ النِّساء:٧٨

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ التوبة:١٢٢

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الاسراء:٤٤

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ طه:٢٧ – ٢٨

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ الانعام:٦٥

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الاعراف:١٧٩

---

١. البيان والتبيين للجاحظ: ٢: ٢٩٣، تح: عبد السلام هارون.

٢. المَصْدَرُ نفسه: ٤: ٩٤.

٣. المَصْدَرُ نفسه: ١: ١٠١.

٤. مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٣٨٤، ط(١)

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾	الانفال:٦٥
﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾	التوبة:٨١
﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾	التوبة:٨٧
﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾	التوبة:١٢٧
﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾	الكهف:٩٣
﴿ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	الفتح:١٥
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾	الحشر:١٣
﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾	المنافقون:٣
﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾	المنافقون:٧
﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾	الانعام:٢٥، الاسراء:٤٦، الكهف:٥٧
﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾	هود:٩١
﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾	الانعام:٩٨

وقد غلبَ استعمالُ «الفقهِ» على علومِ الدينِ لشرفِها وذلكَ من بابِ تخصيصِ الدلالةِ. و تستعملُ في غيرِ علومِ الدينِ بقرينةٍ. وقالَ صاحبُ اللسانِ: «وغلبَ على علومِ الدينِ لسيادتِه وشرفِه وفضلِه على سائرِ العلوم»[1] ويرى ابنُ جنّي«ت٣٩٢هـ» أنَّ الفقهَ خُصَّ به علمُ الشريعةِ وعللهُ اعلامُ وإماراتٌ لوقوعِ الأحكامِ من التحليلِ والتحريمِ[2] كونَه يعنى بالأحكامِ الشَّرعيةِ العمليةِ والإفصاحِ عنها من أدلّتِها التفصيليةِ وقيلَ «هو الإصابةُ والوقوفُ على المعنى الخفيِّ الذي يتعلقُ به الحكمُ وهو علمٌ مستنبطٌ بالرأيِ والاجتهادِ ويحتاجُ فيهِ إلَى النظرِ والتأملِ»[3].

---

١. لسان العرب : مادة فقه، ١٣: ٥٢٢

٢. يُنظَرُ: الخصائص لابن جني: ١: ١٠١-١٠٢«عبد الحميد هنداوي».

٣. كتاب التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني: ١٧٥

أما تعريفُ كلمةِ «اللغةِ»: فاللغةُ مشتقةٌ من لغا يلغو، إذا تكلـمَ فمعناهـا الكـلامُ فهذا تعريفُها فِي اللغةِ.

أما فِي الاصطلاحِ فعرفتْ بتعريفاتٍ عديدةٍ أشهرُها ما ذكره أبو الفتحِ ابـنُ جنـي فِي كتابِه «الخصائصُ» حيثُ قالَ:

«حدُّ اللغةِ: أصواتٌ يعبرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم»[1]

وهذا التعريفُ الذي تناقلَه علماءُ العَرَبِيَّةِ على اختلافِ تخصُّصاتِهم يضارعُ أحدثَ التعريفاتِ العلميةِ للغةِ، حيثُ ترى تلك التعريفاتُ أنَّ اللغةَ:

أ. أصواتٌ منطوقةٌ.
ب. وأنَّ وظيفتَها التعبيرُ عن الأغراضِ.
ت. وإنّها تعيشُ بينَ قومٍ يتفاهمونَ بها.
ث. وأنَّ لكلِّ قومٍ لغةٌ.

فهذه – تقريباً- هي الأركانُ التي يدورُ عليها تعريفُ اللغةِ عند جميعِ مَن عرفَها[2] وإنْ كانتْ بعضُ التعريفاتِ الحديثةِ للغةِ تتوسعُ فتُدخلُ فِي اللغةِ كلَّ وسيلة تفـاهمٍ. ولا تقتصرُ على الأصواتِ فتجعلُ فيها الإشاراتِ وتعبيراتِ الوجهِ ودقاتِ الطبـولِ وغيرَها فإنَّ الأشهرَ هو حصرُ اللغةِ فِي الأصواتِ المنطوقةِ لأنَّ غيرَهـا مـن الوسـائلِ محدودةٌ وقليلةُ القيمةِ.

ويرى بعضُ الباحثينَ أن تعريفَها «اللغـةَ» قـد تخطّـى بفعـلِ الدراسـاتِ اللغويـةِ الحديثةِ التي قامـتْ عـلى أسـاسِ أنّهـا فـرعٌ مـن الفلسـفةِ أوْ علـمِ الـنفسِ أوْ علـمِ الأنثروبولوجيا[3] القولَ بأنّها نظـامٌ مـن الرمـوزِ الصـوتيةِ، أوْ مجموعـةٌ مـن الصـورِ

---

١. المَصْدَرُ نفسه: ٨٧

٢. يُنْظَرُ: فقه في كتب العربية: (عبدة الراجحي): ٦٠

٣. تعني كلمة الأنثروبولوجيا علم دراسة الإنسان لكن مصطلح الأنثروبولوجيا اللغوية يهدف إِلَى الكشف عن الأصول التاريخية لنشأة اللغة عموماً، والمجموعات المتشابهة فيها على وجه الخصوص،

اللفظيةِ تختزنُ فِي أذهانِ أفرادِ الجماعةِ اللغويةِ وتستعملُ للتفاهمِ بين أبناءِ جمعٍ معينٍ، كونَها فِي نظرِ بعضِ الباحثينَ وسيلةٌ للتعبيرِ عن الأفكارِ والعواطفِ والرغباتِ، فهي وسيلةُ توصيلٍ لما ذُكرَ عن طريقِ نظامٍ من الرموزِ التي تصدرُ بطريقةٍ إراديةٍ[1].

فقهُ اللغةِ مصطلحاً علمياً

لم نجدُ فِي كتبِ القدماءِ مدلولاً خاصاً بهذا المصطلحِ، وإنّما جاءَ هذا المصطلحُ فِي بعضِ مَن صنفَ تحتَ هذا العنوانِ رغبةً واختياراً لمن أُهديَ له هذا المصنَّف، أوْ أنَّ صاحبَه لم يكنْ يقصدُ إِلَى بيانِ ماهيّةِ المصطلحِ كونَه لم يكنْ مفرداً بل جاءَ منسبكاً معَ مجموعةِ كلماتٍ، ككتابِ ابنِ فارسٍ «الصاحبيُّ فِي فقهِ اللغةِ و سننِ العربِ فِي كلامِها» وكتابِ أبي منصورٍ الثعالبيِّ «ت٤٢٩هـ»، «فقهُ اللغةِ وسرُّ العَرَبِيَّةِ»، وقبلَ الشروعِ فِي بيانِ و معرفةِ الموضوعاتِ التي عالجَها القدماءُ من قبلُ فِي هذينِ الكتابينِ، نحاولُ أنْ ننطلقَ من الصياغةِ اللغويةِ للمصطلحِ علّنا نقفُ على بعضِ حدودِه اللغويةِ.

فقهُ اللغةِ من الناحيةِ اللغويةِ هوَ: فهمُ اللغةِ والعلمُ بها، وإدراكُ كنهِها، أي أنَّه العلمُ الذي يعنى بدراسةِ قضايا اللغةِ، التي تتمثلُ بالأصواتِ اللغويةِ، والمفرداتِ الصرفيةِ، والتراكيبِ النحويةِ «الجملِ، و الأساليبِ» فضلاً عن المستوى الدلاليِّ «المعجميِّ»، وهذا يعني النظرَ فِي خصائصِها الصوتيةِ. والصرفيةِ والنحويةِ

ويقارن اللغات بعضها ببعض ليحدد الظواهر اللغوية الشائعة بينها على وجه العموم، وعلى ضوء ذلك يتمكن من فهم العمليات والتطورات التي أدت إِلَى نشأة اللغة وتطورها واختلافها. وكذلك يسجل لغات المجتمعات البدائية ليحيلها إِلَى لغات مكتوبة تخضع للتحليل اللفظي ومن ثم يستخرج مضمونها الحضاري.

١. يُنْظَرُ: مقدمة لدراسة فقه اللغة، د. محمد أحمد أبو الفرج: ٢٥-٢٧

والدلاليةِ، وما يطرأُ عليها من تغييراتٍ وما ينشأُ من لهجاتٍ، وما يُثارُ حولَ العَرَبِيَّـةِ من قضايا، وما تواجهُه من مشكلاتٍ إِلَى غيرِ ذلكَ مما يجري ويدورُ فِي فلكِه مما سيأتي عند الحديثِ عن موضوعاتِ فقهِ اللغةِ.

ويمكنُنا القولُ ابتداءً: هـو العلـمُ الـذي يعنـى بفهـمِ اللغـةِ، ودراسـةِ قضـاياها وموضوعاتِها. أوٌ هو دراسةُ العربِ للغتِهم كونَها لغةً حيةً منطوقةً متمثلـةً فِي الـنصِّ القرآنيِّ وقراءاتِه وفي الحديثِ النبويِّ وفي دراسةِ كلامِ الصـحابةِ وفي دراسـةِ أشـعارِ العربِ وخطبِهم وأقوالِهم وأمثالِهم وقد درسوا اللغةَ العَرَبِيَّةَ كونَها وسيلةً لغايةٍ وهيَ فهمُ النصِّ القرآنيِّ، فهو وجهٌ من وجوهِ ترسُّمِ علماءِ العَرَبِيَّةِ للغتِهم[1].

١. في فقه اللغة العربية د. محمد فريد عبدالله: ٣٥.

فقهُ اللغةِ عندَ القُدماءِ والمحدثينَ
فقهُ اللغةِ عندَ الأوائلِ «القدماءِ»

أطلقَ المؤلفونَ العربُ على الاشتغالِ بالمفرداتِ اللغويةِ جمعاً وتأليفاً مصطلحاتٍ عدةً أقدمُها مصطلحُ «اللغةِ». لقد وصفَ أبو الطيبِ اللغويُّ «ت٣٥١هـ» أبا زيدٍ الأنصاريَّ والأصمعيَّ وأبا عبيدةَ بهذا الوصفِ، وقارنَ بينَهم من جانبِ معرفتِهم باللغةِ قالَ: «كان أبو زيدٍ أحفظَ الناسِ للغةِ، وكان الأصمعيُّ يجيبُ فِي ثلثِ اللغةِ، وكان أبو عبيدةَ يجيبُ فِي نصفِها، وكان أبو المهديِّ يجيبُ فيها كلِّها»[1]، والمقصودُ هنا بكلمةِ اللغةِ مجموعُ المفرداتِ ومعرفةُ دلالاتِها، وبهذا المعنى كانتْ كتبُ الطبقاتِ تميزُ بينَ المشتغلينَ بالنحوِ أوِّ العَرَبِيَّةِ من جانبٍ والمشتغلينَ باللغةِ من جانبٍ آخرَ، لذلكَ عُدَّ سيبويهُ والمبردُ من النحاةِ بينما عُدَّ الأصمعيُّ وأقرانُه منَ اللغويينَ، وظلَّ استعمالُ كلمةِ اللغةِ بهذا المعنى قروناً عدةً، وأصبحَ اللغويُّ والباحثُ فِي مفرداتِ اللغةِ جمعاً وتصنيفاً وتأليفاً يوصَفُ بهذا الوصفِ. فالأصمعيُّ عبدُ الملكِ بنُ قريبٍ لغويٌّ لأنه جمعَ ألفاظَ البدوِ وسجَّلَها فِي رسائلَ لغويةٍ مصنَّفةٍ فِي موضوعاتٍ دلاليةٍ، والخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيديُّ لغويٌّ كونَه أولَ مَن حاولَ حصْرَ الألفاظِ العَرَبِيَّةِ وتسجيلَها فِي معجمِه العينِ، والأمرُ ينسحبُ على ابنِ دريدٍ صاحبِ «جمهرةِ اللغةِ»، والأزهريِّ فِي التهذيبِ، وظلَّ هذا المفهومُ سائداً لقرونٍ خلتْ.

وفي القرنِ الرابعِ الهجريِّ ظهرَ عندَ اللغويِّ العربيِّ أحمدَ بنِ فارسٍ «ت٣٩٥هـ» مصطلحُ فقهِ اللغةِ، كونَه أولَ من استعملَه عنواناً لكتابِه «الصاحبيُّ فِي فقهِ اللغةِ وسننِ العربِ فِي كلامِها»، ثمَّ نصادفُ هذا الاصطلاحَ بعد ذلكَ فِي عنوانِ كتابِ الثعالبيِّ. «فقه اللغةِ وأسرار العَرَبِيَّةِ» ولكنَّنا نجدُ مفهومَ فقهِ اللغةِ مختلفاً عندَ الرجلينِ.

---

١. مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي: ٤١.

يتبينُ المطَّلعُ على كتابِ ابنِ فارسٍ «الصاحبيّ فِي فقهِ اللغةِ» أنه ينظرُ إِلَى هذا النوعِ من التأليفِ على أنه دراسةُ القـوانينِ العامـةِ التـي تنـتظمُ اللغـة فِي جميـعِ مسـتوياتِها الصوتيةِ والصرفيةِ والنحويةِ والدلاليةِ والأسلوبيةِ، وهذا مـا سـنقفُ عنـد بيانِـه فِي موضوعاتِ كتابِ الصاحبيِّ فِي فقهِ اللغةِ.

إنَّ كتَّابَ القرنِ الرابعِ لم يلتفتوا إِلَى تقسيمِ الموضوعاتِ تقسيماً منهجياً دقيقـاً بـل كان يغلبُ على عملِهم الاستطرادُ وعدمُ المنهجيةِ لذلكَ نجدُ فِي الكتـابِ عـدداً مـن الموضوعاتِ عن اللغةِ وطبيعتِها ثمَّ أنَّ هناكَ مسائلَ عن أصواتِ اللغـةِ وعـدداً مـن الأبـوابِ تمثلـتْ فِي الصـوتِ والصَّـرفِ والنحـوِ و البلاغـةِ ومسـائلَ فِي الدلالـةِ. وموضوعاتٍ فِي الأسلوبِ والاختلافِ حولَ نشأةِ اللغةِ.

ومن الموضوعاتِ المهمةِ فِي التي صادفتُها فِي كتابِ الصاحبيِّ:

١. بابُ القولِ على لغةِ العربِ أتوقيفٌ أم اصطلاحٌ؟.
٢. اختلافُ لغاتِ العربِ:

أ. فِي الحركاتِ كقولِنا: «نَستعينُ، نِستعينُ» الفتحُ لقريشٍ وأسدٍ، وغيرهما بالكسرِ.

ب. فِي الحركةِ والسكونِ: «مَعَكم، مَعْكم».

ت. فِي الأبدالِ: «أولئكَ، أولالـكَ».

ث. فِي الهمـزِ والتليـينِ: «مسـتهزئونَ، مسـتهزؤُنَ» إِلَى أخـرِه مـن الاختلافاتِ اللهجيةِ.

٣. بابُ القولِ فِي اللغةِ التي نزلَ بها القرآنُ.
٤. بابُ القولِ فِي مأخذِ اللغةِ.

٥. بابُ القولِ فِي الاحتجاجِ باللغةِ العَرَبِيَّةِ.
٦. بابُ القولِ علىٰ لغةِ العربِ هلْ لها قياسٌ وهلْ يُشتَقُّ بعضُ الكلامِ من بعضٍ.
٧. بابُ مراتبِ الكلامِ فِي وضوحِه وأشكالِه.
٨. بابُ القولِ فِي الأسماءِ كيفَ تقعُ علىٰ المسمَّياتِ.
٩. موضوعاتٌ فِي الصرفِ «يدرسُ كيفيةَ تحولِ المعنىٰ بالتصريفِ إِلَىٰ معنىٰ آخرَ، ويكونُ ذلكَ فِي الأفعالِ وفي الأسماءِ»[١].
١٠. مسائلُ نحويةٌ تركيبيةٌ.
١١. مسائلُ دلاليةٌ «بابُ: معاني ألفاظِ العباراتِ التي يعبَّرُ بها عن الأشياءِ»[٢]
١٢. مسائلُ بلاغيةٌ.
١٣. بابٌ فِي الشعرِ.

بما أننا قد بيَّنّا موضوعاتِ الكتابِ فلا بأسَ علينا من نقلِ بعضِ نصوصِ ابنِ فارسٍ التي شرحَ فيها بعضَ الموضوعاتِ التي بيّنّاها فِي أعلاه.

قالَ: «إن لعلمِ العربِ أصلاً وفرعاً: وأما الفرعُ، فمعرفةُ الأسماءِ والصفاتِ، كقولِنا: رجلٌ، وفرسٌ، وطويلٌ، وقصيرٌ، هذا الذي يبدأُ بهِ عندَ التعلُّمِ. وأما الأصلُ، فهو علىٰ موضوعِ اللغةِ، وأوليتِها، ومنشئِها، ثمَّ علىٰ رسومِ العربِ فِي مخاطباتِها، وما لها من الافتنانِ تحقيقاً ومجازاً»[٣]، وعلّةُ قصدَ بالأصلِ ما نفهمُه من مصطلحِ فقهِ اللغةِ لأنَّه قالَ فيما بعدُ «الناسُ فِي ذلكَ رجلانِ: رجلٌ شغلَ بالفرعِ فلا يعرفُ غيرَه، وآخرُ جمعَ الأمرينِ معاً، وهذهِ هيَ الرتبةُ العُليا، لأنَّ بها يُعْلَمُ خطابُ القرآنِ والسُنَّةِ، وعليها يُعولُ أهلُ النظرِ والفُتيا»[٤]، فالنظرُ فِي الأصلِ واجبٌ لأنَّ من دونِه لا يمكنُ

١. يُنْظَرُ: الصَّاحبي: ١٩١- ١٩٢.
٢. المَصْدَرُ نفسه: ١٩٢
٣. الصاحبي: ٢٩
٤. المَصْدَرُ نفسه: ٢٩

أنْ يُفهَمَ المرادُ من الخطابِ القرآنيِّ والسنّةِ فضلاً عن كلامِ العربِ، وقد ساقَ ابنُ فارسٍ جملةً من الأمثلةِ لبيانِ ذلكَ فقالَ: «طالبُ العلمِ العُلويِّ يكتفي من الأسماءِ الطويلِ باسمِ الطويلِ، ولا يضيرُه ألاّ يعرفَ الأشقَّ والأمقَّ، وإنْ كانَ فِي علمِ ذلكَ زيادةٌ وفضلٌ، ولو أنَّه لم يعلمْ توسُّعَ العربِ فِي مخاطباتِها لعيّ بكثيرٍ من محكمِ الكتابِ والسنةِ....ولو قيلَ لهُ: هلّ تتكلمُ العربُ فِي النفيِ بما لا تتكلمُ بهِ فِي الإثباتِ؟ لم يعلمْه. لنقصِه ذلكَ فِي شريعةِ الأدبِ عن أهلِ الأدبِ، لأنَّ ذلك يُردي دينَه أوْ يجرُّه لمأثمٍ. كما أنَّ متوسماً بالنحوِ لو سُئلَ عن قولِ القائلِ:

لَهِنَّكِ من عبسيةٍ لَوسيمةٌ على هنواتٍ كاذبٌ من يقولها

«الأصلُ: لأنك..... »

فتوقفَ أوْ فكّرَ أوْ استمهلَ، لكانَ أمرُه فِي ذلكَ عند أهلِ الفضلِ هيّناً، ولكنْ لو قيلَ لهُ مكانَ لهنك ما أصلُ القسمِ؟ وكمْ حرفُه؟ وما الأحرفُ الخمسةُ المشبهةُ بالأفعالِ التي يكونُ الاسمُ بعدَها منصوباً وخبرُه مرفوعاً؟ فلمْ يُجِبْ! لحُكِمَ عليهِ بأنَّه لم يُشام صناعةَ النحوِ قط، فهذا الفضلُ بينَ الأمرينِ»[1] ولبيانِ حدودِ هذا المصطلحِ وماهيّتِه مقارنة ابنِ فارسٍ بينَ أصولِ الفقهِ الشرعيِّ وأصولِ اللغةِ قالَ: «إنَّ العلمَ بلغةِ العربِ واجبٌ على كلِّ متعلِّقٍ من العلمِ بالقرآنِ والسنةِ والفُتيا بسببٍ حتى لا غِنى بأحدٍ منهم عنْه. وذلكَ أنَّ القرآنَ نازلٌ بلغةِ العربِ ورسولُ الله «ﷺ» عربيٌّ فمَنْ أرادَ معرفةَ ما فِي كتابِ اللهَّ تَعالى وما فِي سنّةِ رسولِه«ﷺ» من كلِّ كلمةٍ أوْ نظمٍ عجيبٍ، لم يجدْ من العلمِ باللغةِ بَدّاً، لأنَّ ذلكَ غيرُ مقدورٍ عليهِ، ولا يكونُ إلاّ لنبيٍّ... بلِ الواجبُ علمُ أصولِ اللغةِ والسننِ التي بأكثرِها نزلَ القرآنُ وجاءت السنةُ...»[2]، ويجعلُ معرفةَ طرائقِ التأليفِ التي لا تحيدُ عن سننِ الاستواءِ من علمِ اللغةِ المشفوعِ بعلمِ العَرَبِيَّةِ «علمِ الإعرابِ» كونَه الفارقَ بينَ المعاني يقولُ: «وعلمُ

---

١. المَصْدَرُ السَّابق: ٣٠-٣١

٢.الصاحبي: ٦٤

اللغةِ كالواجبِ على أهلِ العلمِ، لئلاّ يحيدوا فِي تأليفِهم أوْ فتياهم عن سننِ الاستواءِ...»[1]، وهذا يقودُنا إلَى القول إنَّ ابنَ فارسٍ لم يفرقْ بينَ مفهومَي فقهِ اللغةِ وعلمِ اللغةِ[2] - علماً إنَّ بعضَ المحدثينَ أشغل نفسَه بالتفريقِ بينَ مضمونِ المصطلحينِ- وجعلَ معرفتَهما واجباً على أهلِ العلمِ والفُتيا بعدما جاءَ بجملةٍ من أخطاءِ الإمامِ الشافعيِّ التي غلَّطَه فيها أبو بكرِ بنُ داود:

القولُ فِي إيجابِ ترتيبِ أعضاءِ الوضوءِ فِي الوضوءِ من قولِه تعالى: ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ المائدة:٦، مع إجماعِ أهلِ العَرَبِيَّةِ على أنَّ الواوَ تقتضي الجمعَ المطلقَ لا التوالي[3].

والقولُ فِي التزويجِ إذا قالَ الوالي: «زوجتُك فلانة» فقالَ الزوجُ: «قد قبلتُها»، قالَ: إنَّ ذلكَ ليسَ بنكاحٍ حتى يقولَ: «قد تزوجتُها»، وقالَ: ومعلومٌ أنَّ الكلامَ إذا خرجَ جواباً فقدْ فُهِمَ أنَّه جوابٌ عن سؤالٍ[4].

والقولُ فِي تسميةِ «البِكرِ» التي لا تُوطَأُ حائلاً، ونقلَ ابنُ فارسٍ عن ابنِ داود، أنَّ المرأةَ تُسمّى حائلاً إذا كانتْ حاملاً مرةً، أوْ تُوُقِّعَ منها حملٌ فحالتْ، وكذلكَ القولُ فِي «الطائفةِ» كونَها تدلُّ على الثلاثةِ من الأنفسِ أوْ أكثرَ، ونقلَ ابنُ فارسٍ قولَ مجاهدٍ الذي يرى فيها معنى الواحدةِ[5]، من هذا المعنى القولُ فِي «القروءِ» هل هيَ للحيضِ

---

١. المَصْدَرُ نفسه: ٦٦

٢. فقد استخدم هذا المصطلح عند بعض اللغويين المتأخرين وكان المقصود منه دراسة الألفاظ مصنفة في موضوعات مع بحث دلالاتها، فالرضي الأسترآبادي يفرق بين علم اللغة وعلم التصريف، فموضوع الأول: دراسة الألفاظ، والثاني : معرفة القوانين الخاصة ببنية هذه الألفاظ (شرح الكافية: المقدمة المؤلف.، أما أبو حيان فيرى في مصطلح علم اللغة، دراسة مدلول مفردات الكلم، وهو عينه عند ابن خلدون، أي بيان الموضوعات اللغوية والمقصود بذلك الدلالات التي وضعت لها المعاني. (مقدمة بن خلدون)١٢٥٨.

٣. الصاحبي: ٦٤

٤. المَصْدَرُ نفسه: ٦٤- ٦٥.

٥. يُنْظَرُ: الصاحبي: ٦٥.

أمْ للأطهارِ؟ وينقلُ عن العربِ أنّهم أرادُوا فيها معنىٰ الأطهارِ، ثمَّ نقلَ قولَ أبي بكرٍ إذْ قالَ: ومن العظيمِ أنَّ علياً وعمرَ «رضي الله عنهما» قد قالا: والقروءُ: الحيضُ، فهلْ يجترأُ علىٰ تجهيلِهما باللغةِ»[1].

ويرىٰ ابنُ فارسٍ من المعيبِ علىٰ مَن غلطَ من جهةِ اللغةِ فيما يغيرُ بهِ حكمَ الشريعةِ، فهو يرىٰ أن الجهلَ فِي معرفةِ وظيفةِ الواوِ فِي آيةِ الوضوءِ، وعدمَ العلمِ والمعرفةِ بمعنىٰ ودلائلِ تلكَ الكلماتِ التي أوردْناها، عيباً لغوياً فاحشاً، لأنَّ الغلطَ والجهلَ فيها يؤدي إِلَىٰ تغييرِ الحكمِ الشرعيِّ الذي ترتَّبَ أساساً علىٰ ذلكَ الأثرِ اللغويِّ[2].

فابنُ فارسٍ أولُ من استعملَ هذا المصطلحَ بمعناهُ اللغويِّ وجعلَ علمَ اللغةِ مصطلحاً مرادفاً له، وهذا متأتٍّ من الصلةِ التي كانَ يراها بين اللغةِ والدينِ علىٰ وجهِ العمومِ وبينَ اللغةِ وعلمِ الفقهِ علىٰ وجهِ الخصوصِ[3].

مفهومُ فقهِ اللغةِ عندَ الثَّعالبيِّ

إنَّ القارئَ لكتابِ أبي منصورٍ عبدِ الملكِ بنِ محمدٍ الثعالبيِّ «ت٤٢٩هـ» «فقه اللغةِ وسر العَرَبِيَّةِ» يلحظُ أنَّ مصطلحَ فقهِ اللغةِ عندهُ علمٌ خاصٌّ بفقهِ وفهمِ المفرداتِ. وتمييزُ مجالاتِها واستعمالاتِها الخاصةِ والاهتمامُ بالفروقِ الدقيقةِ بينَ معانيها، إذْ قسَّمَ كتابَه الذي اقتفىٰ آثارَ ابنِ فارسٍ فِي تصنيفِه وتسميتِه فضلاً عن نقلِه لأبوابٍ بأكملِها دونَ تغييرٍ[4]، علىٰ قسمينِ، سُمّيَ القسمُ الأولُ بـ«فقهِ اللغةِ» فيه

---

١. الصاحبي: ٦٥.

٢. يُنْظَرُ: المَصْدَرُ نفسه: ٦٦.

٣. يُنْظَرُ: فقه اللغة في كتب العربية، د. عبدة الراجحي: ٤٢

٤. يُنْظَرُ: فصل في إضافة الشيء إِلَىٰ من ليس له لكن أضيف إليه لا تصله به، الصاحبي: ٢٤٣، وفصل في الإشباع والتوكيد، الصاحبي: ٢٧١، وفصل في النحت، الصاحبي: ٢٧١.....إلخ

ثلاثونَ باباً وكلُّ بابٍ قُسِّمَ على فصولٍ عدةٍ، وهذا القسمُ ومن حيثُ التصنيف عُدَّ معجماً من نوعٍ خاصٍّ جُمعتْ فيه الألفاظُ التي تتصلُ بموضوعٍ واحدٍ، وقد رُتبتْ مادتُه العلميةُ حسبَ موضوعاتِها، بدأَ ذلكَ ببابِ الكلياتِ وهي الكلماتُ التي صاحَبَتْها في التفسيرِ كلمةُ «كلُّ» لذلكَ قالوا: كلُّ ما عَلاكَ وأظلَّكَ فهو سَماءٌ، كلُّ أرضٍ مستويةٍ فهي صعيدٌ، وكلُّ حاجزٍ بين شيئينِ فهو موبقٌ، وكلُّ بناءٍ مربعٍ فهو كعبةٌ[1]. وقد ترجمَ هذه الفكرةَ عنه بشكلٍ واضحٍ ابنُ خلدون في مقدمتِه حيثُ قالَ: «ثمَّ لما كانتِ العربُ تضعُ الشيءَ لمعنىً على العمومِ ثمَّ تستعملُ في الأمورِ الخاصةِ ألفاظاً أخرىً خاصةً بها فرَّقَ ذلكَ عندَنا بينَ الوضعِ والاستعمالِ واحتاجَ الناسُ إلى فقهٍ في اللغةِ عزيزِ المأخذِ كما وضعَ الأبيضَ بالوضعِ العامِّ لكلِّ ما فيهِ بياضٌ ثمَّ أختصَّ ما فيهِ بياضٌ من الخيلِ بالأشهبِ ومن الإنسانِ بالأزهرِ ومن الغنمِ بالأملحِ حتىً صارَ استعمالُ الأبيضِ في هذهِ كلِّها لحناً وخروجاً عن لسانِ العربِ واختصَّ بالتأليفِ في هذا المنحىً الثعالبيُّ وأفردَه في كتابٍ لهُ أسماهُ «فقهَ اللغةِ» »[2].

أما القسمُ الثَّاني فهو «سرُّ العَرَبِيَّةِ» إذْ جَعَلَ مِنْهُ مُلْحَقاً بالقسمِ الأولِ، وهو عنده في مجاري كلامِ العربِ والاستشهاد بالقرآنِ على أكثرِها[3]، وهو في هذا القسمِ أرادَ أنْ يفصحُ عن بعضِ خصائصِ اللغةِ العَرَبِيَّةِ التي تتميزُ بها عن غيرِها فضلاً عن عرضِه لجملةٍ من قوانينِها المتمثلةِ بلغةِ الاستعمالِ، وعلىً المستوياتِ اللغويةِ كافة كالمستوىً الصوتيِّ «مثلاً في فصلٍ في الإتباعِ» والمستوىً الصرفيِّ «كفصلٍ في أبنيةِ الأفعالِ، الاشتقاق... » والمستوىً النحويِّ «كفصلِ حروفِ المعاني»، والمستوىً الدلاليِّ الذي تمثَّلَ ببعضِ الموضوعاتِ ذاتِ الجانبِ الدلاليِّ، ولا يخفىً على القارئِ من موضوعاتٍ بلاغيةٍ في علمَي البديعِ والبيانِ.

---

١. يُنْظَرُ: فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي: ١١

٢. يُنْظَرُ: المقدمة لابن خلدون: ١٢٥٨

٣. يُنْظَرُ: فقه اللغة للثعالبي: ١٥٣.

ويبدو لنا أنَّ ثمةَ اختلافاً قد نتجَ عن استعمالِ كلمةِ «لغةٍ» عند ابنِ فارسٍ والثعالبيِّ، فابنُ فارسٍ استعملَها بمعناها العامِّ المطلقِ أي تلكَ الوسيلةُ المتعددةُ المستوياتِ التي يستعملُها الناسُ فِي التفاهمِ فيما بينَهم لذا جاءَ مفهومُ فقهِ اللغةِ عنده واسعاً وشاملاً لجميعِ مستوياتِ اللغةِ.

أما الثعالبيُّ فقد استخدمَ كلمةَ «لغةٍ» فِي معناها الخاصِّ الذي يقابلُ كلمةَ نحوٍ، وهو معرفةُ المفرداتِ ومعانيها لذا نرىٰ فقهَ اللغةِ عنده هو فقهٌ للمفرداتِ لا التراكيبِ والأساليبِ.

ولم يصرحْ أيٌّ منهما بحدودِ ذلكَ المصطلحِ الذي استعملَه فِي عنوانِ كتابِه ولو بإشارةٍ فِي مقدمةِ الكتابِ.

قالَ ابنُ فارسٍ فِي مقدمةِ كتابِه الصاحبيِّ:

«إنَّ لعلمِ العربِ أصلاً وفرعاً، أمّا الفرعُ فمعرفةُ الأسماءِ والصفاتِ كقولِنا، «رجلٌ» و «فرسٌ» و «طويلٌ» و «قصيرٌ». وهذا هو الذي يبدأُ به عند التعلمِ، وأما الأصلُ فالقولُ علىٰ موضوعِ اللغةِ وأوليتِها ومنشئِها ثمَّ علىٰ رسومِ العربِ فِي مخاطبتِها وما لَها من الافتنانِ تحقيقاً ومجازاً والناسُ فِي ذلكَ رجلانِ: رجلٌ شغلَ بالفرعِ فلا يعرفُ غيرَه، وآخرُ جمعَ الأمرينِ معاً، وهذه هي الرتبةُ العُليا، لأنَّ بها يُعلَمُ خطابُ القرآنِ والسنةِ وعليها يعولُ أهلُ النظرِ والفُتيا وذلكَ أنَّ طالبَ العلمِ العلويِّ يكتفي من سماءِ «الطويل» باسمِ الطويلِ ولا يضيرُه أنْ لا يعرفَ «الأشق» و «الأمق» وإنْ كانَ فِي علمِ ذلكَ زيادةٌ فضلٌ وإنما لو يضرُّه خفاءُ ذلكَ عليه لأنه لا يكادُ يجدُ منه فِي كتابِ اللهِ جلَّ ثناؤُه فيحوجُ إِلَىٰ كلمةٍ»[1].

أما الثعالبيُّ قالَ فِي مقدمةِ مصنَّفِه: «فإنَّ مَن أحبَّ اللهَ أحبَّ رسولَه المصطفىٰ «ﷺ» ومن أحبَّ الرسولَ أحبَّ العربَ، ومن أحبَّ العربَ أحبَّ اللغةَ

١. الصاحبي: ٢٩.

العَرَبِيَّةَ التي نزلَ بها أفضلُ الكتبِ على أفضلِ العربِ والعجمِ، ومـن أحـبَّ العَرَبِيَّـةَ عُني بها، وثابرَ عليها، وصرفَ همَّتَه إليهـا... إذ هـي أداةُ العلـمِ، ومفتـاحُ التفقُّـهِ فِي الدينِ، وسببُ إصلاحِ المعاشِ والمعادِ»[1].

ومن خلالِ مقدمةِ كتابِ الصاحبيِّ لابنِ فـارسٍ وفقـهِ اللغـةِ للثعـالبيِّ لم نلحـظْ تحديداً للمصطلحِ، بل وجـدْنا القـولَ فِي موضـوعاتٍ لغويـةٍ تتمثـلُ بقضـايا اللغـةِ المختلفـةِ وخصـائصِ العَرَبِيَّـةِ وبيـانِ سـننِ العـربِ فِي كلامِهـا، فجـاءتْ عنـايتُهم بالأصواتِ والمفرداتِ والتراكيبِ والصرفِ والنحوِ والدلالةِ واللهجاتِ، فضلاً عن روايةِ اللغةِ ومعرفةِ أصولِ اللغةِ ومصادرِها، وعللِها، ومظاهرِ تطورِها، فـ فقهُ اللغةِ عند القدماءِ يفصحُ عن حدودِه من خلالِ النظرِ فِي تلكَ المصـنفاتِ كونَـه يـدلُّ عـلى شموليةِ الدرسِ اللغويِّ عنـدَهم، لأنَّهـم لم يفصـلوا بـين تلـك المسـائلِ اللغويـةِ فِي مباحثِهم بلْ جاءتْ متداخلةً لا يمكنُ الفصلُ بينَها نظراً لغيـابِ المصـطلحِ اللغـويِّ وضبابيتِه أولاً، وكونِ الدرسِ اللغويِّ فِي بداياتِـه لم يكـنْ درسـاً تعليميـاً كـي يقـنِّنُ القواعدَ ويشعبُ قضايا اللغةِ عـن قضـايا النحـوِ ثانيـاً، لـذلكَ نلحـظُ فِي مؤلفـاتِ القدماءِ تباعاً مثلَ هذا التداخلِ فِي المادةِ اللغويةِ.

١. فقه اللغة وسر العربية: ٩.

أُستعملَ مصطلحُ فقهِ اللغةِ فِي الدرسِ اللغويِّ الحديثِ مع بداياتِ القرنِ العشرين فِي الجامعةِ المصريةِ، حينما جاءَ جماعةٌ من المستشرقينَ للتدريسِ فِي مصرَ، يقولُ الدكتورُ زكي المبارك: «ذكرَ السنيورُ جويدي فِي محاضرتِه الأولىٰ بالجامعةِ المصريةِ «٧ أكتوبر سنة١٩٢٦» أنَّ كلمةَ *philology* تصعبُ ترجمتُها إِلَىٰ العَرَبِيَّةِ، وأنَّ لها فِي اللغاتِ الغربيةِ معنىٰ خاصاً لا يتفقُ عليه أصحابُ العلمِ والأدبِ. فمنهم من يرىٰ أنَّ هذا العلمَ مجردُ درسِ قواعدِ الصرفِ والنحوِ ونقدِ نصوصِ الآثارِ الأدبيةِ، ومنهم من يرىٰ أنه ليس درساً للغةِ فقط ولكنَّه بحثٌ عن الحياةِ العقليةِ من جميعِ وجودِها، وإذا صحَّ ذلكَ فمن الممكنِ أنْ يدخلَ فِي دائرةِ «الفليلوجيِّ» علمِ اللغةِ وفنونِها المختلفةِ، كتأريخِ اللغةِ ومقابلاتِ اللغاتِ والنحوِ والصَّرفِ والعروضِ وعلومِ البلاغةِ وعلمِ الأدبِ فِي معناه الأوسعِ، فيدخلُ تاريخُ الآدابِ وتاريخُ العلومِ من حيثُ تصنيف الكتبِ العلميةِ، وتاريخُ الفقهِ من حيثُ تدوينه فِي المجاميعِ والمجلاتِ، وتاريخُ الأديانِ من حيثُ درس الكتبِ المقدسةِ وتأليف الكتبِ الدينيةِ واللاهوتيةِ، وتاريخُ الفلسفةِ من حيثُ تأليف كتبِ الحكمةِ وكتبِ الكلامِ. ولا سبيلَ إِلَىٰ معرفةِ هذهِ الحياةِ العقليةِ إلاّ بدرسِ أحوالِ المركزِ الذي نشأتْ فيه تلكَ الآثارُ الأدبيةُ»[1].

ويرىٰ الدكتورُ زكي المبارك أنَّ العملَ وفقَ هذا التحديدِ يجعلُ من مهمةِ الباحثِ فِي هذا المجالِ من الدرسِ شاقةً عسيرةً إنْ لمْ تكنْ مستحيلةً، كونَه يردُّما تميزَ من العلومِ وكانَ مستقلاً منها إِلَىٰ علمٍ واحدٍ، فلا يمكنُ للباحثِ إلاّ أنْ يجيدَ فِي جزءٍ

١. النثر الفني في القرن الرابع الهجري، د. زكي المبارك: ٢: ٣٧-٣٨.

واحدٍ منها[1]. ويرىٰ بعضُ المستشرقينَ أنَّ استعمالَ مصطلحِ فقهِ اللغةِ فِي البحثِ عن أوليةِ اللغةِ ليس إلاّ كنايةً مؤقتةً عمّا يُسمّىٰ بتاريخِ اللغةِ العَرَبِيَّةِ، لأنَّ ما يقصدُ إليه البحثُ ابتداءً إنما هو الكشفُ عن نشأةِ اللغةِ العَرَبِيَّةِ وتطورِها[2].

وقد ذهبَ بعضُ باحثينا العربِ إلَىٰ المقاربةِ بينَ مصطلحِ فقهِ اللغةِ ومصطلحِ (*philology*) نظراً للتماثلِ فِي الدلالةِ اللغويةِ، فقد جاءتْ فِي أحدِ معاجمِ الاصطلاحاتِ اللغويةِ كما ينقلُه الدكتورُ زكي المبارك، بعدَ الترجمةِ «العلمُ الذي يدرسُ اللغةَ وكلماتِها وقوانينَها، وقد يدخلُ فِي فهمِ الاصطلاحِ «الأدب» خاصةً النصوصُ القديمةُ منه»[3].

وترىٰ بعضُ المدارسِ اللغويةِ الغربيةِ أنَّ فقهَ اللغةِ (*philology*) هو علمُ اللغة(*linguistics*)، إذْ جاءَ فِي دائرةِ المعارفِ البريطانيةِ فِي مادة ما(*philology*) هو مقابلٌ لهذا التعريفِ، إذْ يغلبُ علىٰ هذا المصطلحِ فِي إنجلترا الإشارةُ إلَىٰ علمِ اللغةِ بما فِي ذلك معنىٰ الاصطلاحِ فِي أمريكا[4]، لأنَّ فقهَ اللغةِ عندهم مهتمٌّ بالجانبِ اللغويِّ للأدبِ وصيغِ الفنونِ المماثلةِ كما أنه يهتمُّ إلَىٰ حدٍ ما بالوثائقِ الثقافيةِ والاجتماعيةِ بأنواعِها[5].

أما الباحثون العربُ فقد نقلَ الدكتورُ صبحي الصالح عن معجمِ روبيرَ الفرنسيِّ أنَّ مصطلحَ (*philology*) يتألفُ من كلمتينِ من أصلٍ إغريقيٍّ وهما (*philos*) وتعني الصديقَ أوِ المحبَّ و (*logos*) الخطبةَ أوْ كلام، وأنَّ واضعَ هذه التسميةِ لاحظَ أنَّ هذا المصطلحَ يقومُ علىٰ حبِّ الكلامِ للتعمقِ فِي دراستِه من حيثُ قواعده وأصوله

---

١. يُنْظَرُ: المَصْدَرُ نفسه: ٢: ٣٨

٢. يُنْظَرُ: قول كراوس في مقدمة كتاب فقه اللغة وسر العربية للثعالبي.

٣. مقدمة لدراسة فقه اللغة: ١٣

٤. يُنْظَرُ: المَصْدَرُنفسه: ١٤

٥. المَصْدَرُ نفسه: ١٤

وتاريخه[1] ولهذا المصطلحِ معنىً اصطلاحيٌّ: هو علمٌ تاريخيٌّ يهدفُ إِلَى دراسةِ الحضاراتِ العابرةِ من خلالِ الوثائقِ المكتوبةِ التي تركَها السلفُ للخلفِ، مما يسمحُ لنا بفهمِ المجتمعاتِ القديمةِ، وهو يعمدُ إِلَى دراسةِ النصوصِ الأدبيةِ المكتوبةِ، فهو إذاً علمٌ مساعدٌ للتاريخِ، كما يعمدُ إِلَى نقدِ النصوصِ داخلياً وخارجياً، وذلكَ بمقابلةِ النصوصِ ودراسةِ رواياتِها، دراسةِ تاريخِ المخطوطاتِ، وبكلمةٍ موجزةٍ هو دراسةُ النصوصِ وإعدادُها للنشرِ، وهذا ما مهَّدَ إِلَى ظهورِ علمِ اللغةِ التاريخيِّ[2] ويشدِّدُ دوسوسير على إن الفيولوجيا يدرسُ اللغاتِ المكتوبةَ ويستثني اللغاتِ المنطوقةَ أوٌ يهملُها[3]. ويرىٰ الدكتورُ صبحي الصالح أنَّ مصطلحَ فقهِ اللغةِ عند الغربيينَ لا ينصرفُ إلاّ إِلَى دراسةِ اللغتينِ الإغريقيةِ واللاتينيةِ، ومصطلحُ فقهِ اللغةِ مصطلحٌ عربيٌّ قديمٌ ويجبُ علىٰ الباحثِ العربيِّ ألاّ يستبدلَ بهذهِ التسميةِ القديمةِ شيئاً[4]، وفي ذلك إشارةٌ إِلَى مَن جعلَ فقهَ اللغةِ علماً مرتبطاً بعلومٍ أخرىٰ كالفلسفةِ وعلمِ الكلامِ أوٌ علمِ المنطقِ فضلاً عن ما أشرْنا إليه آنفاً.

ومن بعد عرضِه لأسلوبِ كتابِه «دراسات فِي فقهِ اللغةِ»، وحكمِه فِي البابِ الأولِ منه بأنَّ فقهَ اللغةِ وعلمَ اللغةِ دراستانِ متداخلتانِ ومن العسيرِ الفصلُ بينهما وتحديدُ الفروقِ الدقيقةِ بينهما[5]، ذهبَ إِلَى تحديدِ مصطلحِ فقهِ اللغةِ، قالَ هوَ: «منهجٌ للبحثِ استقرائيٌّ وصفيٌّ تَعرِفُ به أصلَ اللغةِ التي يُرادُ درسُها، وموطنُها، وفصيلتُها، وعلاقتُها باللغاتِ المجاورةِ أوٌ البعيدةِ، الشقيقةِ أوٌ الأجنبيةِ، وخصائصُها وعيوبُها،

---

١. يُنْظَرُ: دراسات في فقه اللغة العربية، د. صبحي الصالح: ٤.

٢. محاضرات في فقه اللغة، د. عصام نور الدين: ٢٧.

3.Saussure f de cours de linguistique generale Paris edition payotheque 1980 p: 13-14
نقلاً عن محاضرات في فقه اللغة: ٢٧.

٤. يُنْظَرُ: دراسات في فقه اللغة: ١٩.

٥. لقد ذهب الأستاذ محمد الأنطاكي في كتابه (الوجيز في فقه اللغة.، والدكتور محمد أحمد أبو الفرج في كتابه (مقدمة لدراسة فقه اللغة). إِلَى التسوية بين مفهومي فقه اللغة وعلم اللغة.

ولهجاتُها، وأصواتُها، وتطورُ دلالتِها، ومدىٰ نمائِها قراءةً وكتابةً»[1].

أما الدكتورُ عبد الصبور شاهين فقد جعلَ مصطلحَ «فقهِ اللغةِ» فِي العَرَبِيَّةِ، يضارعُ مصطلحَ (*philology*) فِي هذا العصرِ، كونَه يدلُّ علىٰ ما كانَ يدلُّ عليه مصطلحُ فقهِ اللغةِ عند القدماءِ[2].

أما الدكتورُ أحمد محمد قدورة وبعدَ عرضِه جملةً من الآراءِ التي صدرتْ عن باحثي اللغةِ العَرَبِيَّةِ المحدثينَ فِي تحديدِ ماهيةِ وحدودِ مصطلحِ فقهِ اللغةِ وعلاقتِه بعلمِ الفيلولوجيةِ وعلمِ اللغةِ، فقدْ خلصَ إِلَىٰ أنَّ الباحثَ مدعوٌّ إِلَىٰ إنعامِ النظرِ فِي تلكَ المصطلحاتِ تجنباً لأيِّ لبسٍ و وهمٍ[3]، لأنَّ مصطلحَ فقهِ اللغةِ الذي وصفَ عنده بالعربيِّ القديمِ الذي «بُعثَ فِي هذا العصرِ وأُشرِبَ معاني جديدةً لا تخرجُ عن دراسةِ بعضِ الأصولِ الساميّةِ القديمةِ وثمراتِ المنهجِ المقارنِ»[4]، وفي هذه الحالِ لم نجدْه يختلفُ كثيراً عن سابقيه فِي عرضِ ومناقشةِ هذا المصطلحِ غير أنه تبنّاه بوضوحٍ للدلالةِ علىٰ الدرسِ الخاصِّ بالعَرَبِيَّةِ وخصائصِها كونَه الأصلحَ لدرسِنا اللغويِّ[5].

أما الدكتورُ تمّام حسّان فِي كتابِه الأصول دراسة أبستمولوجية «معرفية» فقد وقفَ عند حدودِ هذا المصطلحِ وعرضَ لدلالتِه القديمةِ التي ترشحتْ عن المصنفاتِ التي حملتْه عنواناً لها، والحديثةِ المتمثلةِ بالدراسةِ المقارنةِ للغاتِ العروبيةِ، ودراسةِ اللهجاتِ، وأصواتِ العَرَبِيَّةِ[6].

وكانتْ دراسةُ الدكتور تمام حسان تنظرُ إِلَىٰ فقهِ اللغةِ ومن وجهةٍ أبستمولوجية، من بابِ العلمِ غيرِ المضبوطِ أوِ المعرفةِ، يحصلُ بالاستيعابِ، وهو قائمٌ علىٰ الاستقراءِ

---

١. المَصْدَرُ نفسه: ٦

٢. يُنْظَرُ: في علم اللغة العام: د. عبد الصبور شاهين: ٥-٨

٣. يُنْظَرُ: مدخل إِلَىٰ فقه اللغة: ٣٦.

٤. المَصْدَرُ نفسه: ٣٦

٥. المَصْدَرُ نفسه: ٣٨

٦. يُنْظَرُ: الأصول دراسة أبستمولوجية، د. تمام حسان: ٢٧٠.

التامِّ أي الإحصاء، لذلكَ خالفَ علمَ اللغةِ كونَ الأخيرِ يقومُ على الاستقراءِ الناقصِ بغيةَ ضبطِ النتائجِ والتحققِ منها، فضلاً عن ذلكَ قيامُه على «أعني علمَ اللغةِ» الشمولِ والقياسِ لسدِّ النقصِ الحاصلِ في الاستقراءِ، والتماسكِ والاقتصادِ[1].

ويتضحُ من خلالِ ما تقدمَ أنَّ علماءَ القرنِ الرابعِ الهجريِّ قصدُوا إلَى دراسةٍ جديدةٍ للغةِ العَرَبِيَّةِ، إذْ تمثَّل ذلك الأمرُ بطرائقِ تأليفِ الكتبِ المتخصصةِ في اللغةِ العَرَبِيَّةِ وخصائصِها وما يتعلقُ بها من مسائلَ وقضايا لغويةٍ، وصارتِ المادةُ اللغويةُ محتاجةً إلَى نظرٍ كليٍّ يتجاوزُ «أصولَ النحوِ» ليصيرَ علماً لأصولِ اللغةِ عامةً، ولم يكنْ ثمةَ ما يلبّي هذه الحاجةَ إلاّ محاكاةُ علمِ أصولِ الفقهِ وعلمِ الكلامِ لما عُرفا به من تأصيلٍ للظواهرِ واستخلاصِ القواعدِ وضبطٍ للمسائلِ.

وبهذهِ الحالِ وفي أدنى مقارنةٍ لا يمكنُ أنْ ندرجَ تلكَ الموضوعاتِ في بابِ الفيلولوجيا الغربيةِ، لأنَّ فقهَ اللغةِ عندَ ابنِ فارسٍ يعنى بدراسةِ اللغةِ على المستوياتِ الصوتيةِ والصرفيةِ والنظميةِ أوْ التركيبيةِ والدلاليةِ والأسلوبيةِ والبلاغيةِ، فضلاً عن ذلك نجدُ أنَّ معظمَ موضوعاتِ الكتابِ متداخلةٌ تداخلاً شديداً بحيثُ يصعبُ فصلُ كلِّ موضوعٍ عن الآخرِ لأنَّ كلاًّ من هذهِ المستوياتِ لابدَّ من أنْ يرتكنَ في عمليةِ التحليلِ إلَى المستوى الآخر، وتلكَ كانتْ سمةَ العصرِ التي تميزُ منهجَ القدماءِ في التأليفِ أوْ فقدانِ المنهجِ كما يقولُ بعضُ المحدثينَ.

فمصطلحُ فقهِ اللغةِ العَرَبِيَّةِ كما أوردَهُ اللغويونَ العربُ القدماءُ والمحدثونَ علمٌ يعنى بدراسةِ لغةِ العربِ كونَها لغةً حيةً منطوقةً متمثلةً بالقرآنِ الكريمِ وقراءاتِه وفي الحديثِ النبويِّ الشريفِ وفي دراسةِ كلامِ الصحابةِ، وفي دراسةِ أشعارِ العربِ وخطبِهم وأقوالِهم وأمثالِهم.

وقد درسوا اللغةَ العَرَبِيَّةَ بكونِها وسيلةً لغايةٍ، وهي فَهمُ النصِّ القرآنيِّ، ومعنى ذلكَ أنّهم ينتهونَ بها إلَى درسِ لغةِ القرآنِ الكريمِ، والحقُّ أنَّ العربَ وإنْ كانوا قد

١. يُنْظَرُ: المَصْدَرُ السَّابق: ١١-١٧، ٢٧٢-٢٧٥

اتخذوا الدرسَ اللغويَّ وسيلةً، فإنَّ هذا الدرسَ قد انتهى بهم إِلَى أنْ يكونَ غايةً فِي حدِّ ذاتِه لأنهم درسُوا اللغةَ العَرَبِيَّةَ فِي مستوياتِها الصوتيِّ والصرفيِّ والتركيبيِّ والدلاليِّ وكانتْ دراساتُهم تلحظُ هذهِ المستوياتِ دونَ أنْ تفرِّقَ بينها فهي عندهم كلٌّ متكاملٌ وقد تكونُ منهجيتُهم فِي الدرسِ أقربَ إِلَى روحِ اللغةِ العَرَبِيَّةِ وسننِها فِي بقيةِ المناهجِ.